الهمز والتسهيل عند شعراء قريش

صباح علاوي خلف السامرائي

العـــراق

الحمد لله ذي القدرة القاهرة والآلاء الظاهرة والنعم الوافرة، والصلاة والسلام على الهادي إلى خير الدنيا والآخرة. الحمد لله القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وبعد:

فإن من نعم الله على خلقه أن سهّل عليهم سبل التخاطب والتفاهم بأيسر السبل، ومنّ على امة العرب أن جعل لغتها من اجَلِّ اللغات وأعظمها شأنًا. فختم الرسالات بخير خَلْقه، وأنزل عليه أحسن كُتُبِه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ثمّ كان العرب من قبل ذلك ومن بعده تتفاوت لهجاتهم بحسب البيئة والبعد أو القرب من لغة الأدب العالية التي تشير كثير من مصادر الأدب واللغة إلى أن أقربها من ذلك لغة قريش لمكانهم من الحرم فكانوا ملتقى العرب بشتى مواطنهم ولهجاتهم.

وكانت الظواهر اللغويّة المختلفة من بين سائر الأمور التي واكبت تعدّد الأوطان والطباع، ولعلَ من أبرز ما انمازت به لهجة قريش بين أقلام الدارسين قديمًا وحديثًا تلك المقولة التي تحكم على لهجة قريش بانعدام الهمز عندهم إلا في أوّل الكلام أو ربما إذا اضطروا همزوا[١]، وجاء هذا البحث للوقوف على مدى صحّة إطلاق هذا الحكم، ومدى صحّة هذا القول في اللغة الأدبيّة لقُريش، وفيما إذا عَنَى الدارسون فيما قالوه ما يتصل باللهجة التي هي لغةُ التخاطب اليوميّ أكثر ممّا هو في اللغة العالية، فجاء هذا البحث على مطلبين: الأول منهما حاول إيجاز صور التسهيل كي لا يكون القارئ بعيداً عن تطبيق نوع التسهيل في الكلمة التي يتناولها المطلب الثاني الذي تناول الهمز والتسهيل عند شعراء قريش، وقد اقتصرنا على

(١) ينظر: إيضاح الوقف والابتدا ١/ ٣٩٢، وتأويل مشكل القرآن ٣٩، والنشر ١/ ٤٢٩، وشرح المفصل ٩/ ١٠٧، وتاج العروس مادة (نبر)، ولغة قريش ٣٩

عددٍ من الشعراء الذين لم يبتعدوا مكانًا عن مكّة أو زمن نزول القرآن ثمّ ختمنا البحث بعرض ما توصل إليه، سائلين المولى جلَّ وعلا أنْ يوفّقنا لخدمة لغة كتابه العزيز انّه نعم المولى ونعم النّصير.

المطلب الأول: الهمز والتسهيل

تُعدُّ ظاهرة الهمز من أهمّ الظواهر الصوتيّة في القراءات القرآنيّة سواءً في ذلك القراءات المشهورة المتواترة أم النادرة الشاذّة، ولعلّ سبب ذلك هو أصل الاختلاف في صورة الهمزة ومخرجها ومدى تأثُّرِها بغيرها من الأصوات.

ومخرج الهمزة عند القدماء من مخرج الألف وهو أقصى الحلق، ولكنَّ المحدثين يفرقون بين مخرج الألف ومخرج الهمزة، فلا يعدُّون الألف من أقصى الحلق لخروج الهواء عند نطقه بشكلٍ مستمر من خلال الحلق والفم من غير أن يعترضه إلا أدنى تضييق(١) في حين «تُسَدُّ الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيَّين حال النطق بهمزة القطع، وذلك بانطباق الوترين انطباقًا تامًّا فلا يُسمح للهواء بالمرور من الحنجرة، ثمّ ينفرجُ الوتران فيخرج الهواء فجأةً مُحدثًا صوتًا انفجاريًّا»(٢).

هذا فيما يتصل بالمخرج، أمّا ما يتصل بالصفةِ فالهمزة عند القدماء حرفٌ مجهورٌ(٣)، وهي عند المحدثين حرفٌ لا مجهورٌ ولا مهموسٌ، وإن كان هناك مِن الدارسين مَن يرى أنّها صوتٌ مهموس(٤)، والهمزة بعد هذا صوتٌ شديدٌ(٥).

وللهمزة علاقة بالواو والألف والياء، تتمثّل بإبدالها همزة، وذلك لأغراضٍ

(١) ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية د.غانم قدوري ٧٤، وعلم اللغة العام قسم الأصوات د.كمال بشر ٧٨.

(٢) علم اللغة العام ١١٢

(٣) ينظر: الكتاب ٤/٤٤٣، وسر صناعة الإعراب ١/٧٣

(٤) ينظر: علم اللغة العام ١١٢

(٥) ينظر المعجم الوسيط ١/١

صوتيّة وحاجاتٍ دلاليّةٍ تفرضها طبيعة الحياة القبليّة عند العرب، ولاسيما الطبيعة البدويّة التي عُرف عنها الميل إلى الهمز في كلامها والضغط بشدّة على حروف المدّ واللين أحيانًا فتتحوّل بها عن نبر الطول إلى نبر التوتر(١).

ولكثرة الإبدال بين حروف المدّ والهمزة بدا وَكَأنّ هناك علاقةَ تشابهٍ وتقاربٍ بين هذه الحروف وبين الهمزة، قال سيبويه في ذلك: «وليس حرفٌ أقربَ إلى الهمزة من الألف»(٢).

وقد توارث العرب والمسلمون الاختلاف في نطق الهمزة من ناحية التحقيق والتسهيل حتى يومنا هذا، فهي ظاهرة طبيعيّة ضاربةٌ في القِدَم كغيرها من الظواهر اللغويّة التي تتفاوت فيها القبائل العربيّة بسبب سعة الرقعة الجغرافيّة التي انتشرت بها القبائل وما يتبع ذلك من تغير طبيعة الأرض من جبالٍ وسهولٍ وأوديةٍ وصحارى، فلا غرابة في تسهيل الهمزة عند هذه القبيلة وتحقيقها عند تلك.

ولعلّ ممّا يستوقف الدارس هنا ما نُقِلَ من أخبارٍ وآثارٍ ضعيفة عن هذه الظاهرة، منها ما ذكره السيوطي في الإتقان فيما رواه موسى بن عبيدة عن نافع عن ابن عمر قال: «ما همز رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعده»(٣). ومثل ذلك ما روي من أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: السلام عليك يا نبيء الله، فقال عليه الصلاة والسلام: لست بنبيء الله ولكنّي نبيُّ الله، بلا همز(٤). فأما الحديث الأول فيرده أبو شامه إذ يقول: «هذا حديثٌ لا يحتجُّ به، وموسى بن عبيده الزبيدي ضعيف عند أئمة الحديث»(٥)، وأما الحديثُ

(١) ينظر الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، ١٠٦.

(٢) الكتاب ٣ / ٥٤٤

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٢٧٧

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٣١

(٥) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٢٧٧

الثاني (لست بنبيء..) فقد ذكر القرطبي أنّ أبا عليٍّ ضعَّف سند هذا الحديث(١)، وذكر السيوطي أنَّ الذهبيَّ قال في راوي هذا الحديث: ليس بثقة(٢).

ثمَّ إنّ العبّاس بن مرداس السلميّ مدح النبي ﷺ بقوله(٣):

يا خاتَم النُبَّآءِ إنَّكَ مُرسَلٌ بِالحَقِّ كُلُّ هُدى السَبيلِ هُداكا

ولم يُنكر عليه ذلك على الرغم من تحقيقه همزة (النبآء)(٤).

وبعد ما تقدم كيف يصح الحكم بانعدام الهمز عند قريش وقد اجمع ثقات المسلمين على صحّة قراءة من حقّق الهمز وتواترها، ولعل المتتبّع يرى أنّ القُرّاء المشهورين جميعًا قرءوا بالهمز بما فيهم قُرّاء المدينة، والنبي ﷺ سمع قراءات من حقق الهمز من العرب ومن خفّفها فلم ينْهَ عن الهمزة ولم يأمُر بالتخفيف، وقد روى الطبريُّ عن أبي العالية قوله: «قرأ على رسول الله من كلِّ خمسٍ رَجُلٌ فاختلفوا في اللغة، فرضيَ قراءتهم كلِّهم فكان بنو تميم أعربَ القوم»(٥)، والمعروف عن بني تميم تحقيق الهمز.

إن هذا كلّه لا يمنع من القول: إنّ أكثر أهل الحجاز، ومنهم قريش، كانوا لا يميلون إلى الهمز، ولكنّ كثيراً من الكلمات القرآنيّة نزلت مهموزة ولم تقف حائلاً دون سلاسة الآيات مع ألسنتهم. يقول الرضيّ الاستراباذيّ في كلامه على الهمزة: «خَفَّفَها قوم، وهم أهل الحجاز ولاسيما قريش، روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر ولولا أنّ جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبيّ ﷺ ما همزنا، وحقّقَها غيرُهم»(٦).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣١

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٧٧

(٣) ديوانه ٩٣

(٤) ينظر: القرطبي ١/ ٤٣١

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ١/ ١٩

(٦) شرح الشافية ٣/ ٣٢

تسهيل الهمز

يعتمد تسهيل الهمز بشكل أساسيّ على حركتها وحركة الحرف السابق لها، والهمزة بذلك على شكلين:

أ – الهمزة الساكنة وفي حالتها هذه سيكون الاعتبار لحركة ما قبلها ويكون على ثلاثة أقسام:

١– مضموم ما قبلها نحو: يؤمنون، يؤتى، رؤيا...

٢– مكسور ما قبلها نحو: بئس، جئت، شئت...

٣– مفتوح ما قبلها نحو: فأتوهن، فأذنوا، وأمر اهلك...

وفي هذه الحالات كلِّها يكون التسهيل بإبدالِ الهمزة بحرفِ مدٍّ من جنس حركة الحرف السابق، وقد قرأ أبو جعفر بذلك(١).

ب – الهمزة المتحركة وتنقسم أيضًا بحسب حركة ما قبلها على قسمين:

الأول: متحركة ما قبلها متحرك، وتكون على سبعة أحوال(٢):

١– مفتوحة قبلها ضمة: فتبدل واوًا نحو: (يؤده) فتصبح: يوده.

٢– مفتوحة قبلها كسرة: فتبدل ياءً نحو: (رئاء الناس) فتصير: رياء ومثلها: (خاسئًا) و(شانئك).

٣– مفتوحة قبلها فتحة: فتسهل بين بين أو تبدل ألفًا نحو: (أرأيت)، فإذا أبدلت مُدّت لالتقاء الساكنين.

٤– مضمومة قبلها كسرة وبعدها واو: فتحذف الهمزة ويُضمُّ ما قبلها نحو: (الصابئون) تصبح: الصابون، و(المستهزِئُون) تصبح: المستهزون.

مع ملاحظة أن الهمزة المضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنك تصيّرها بين بَين عند سيبويه(٣).

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر ١ / ٣٩٠

(٢) ينظر: لما يأتي من تفصيل: الكتاب ٣ / ٥٤١–٥٥٦، والنشر ١ / ٣٩٠–٤٠٧، والقراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث ٥١–٧٤.

(٣) ينظر: الكتاب ٣ / ٥٤٢

٥- مضمومة قبلها فتحة: فتحذف نحو : (لم يطؤُوها) تصبح: لم تطوها، وعند سيبويه تكون بين بَين[١]، ونحو: (لا يطأون) تكون: لا يطون.

٦- مكسورة قبلها كسرة بعدها ياء: فتحذف الهمزة نحو: (متكئين) تكون: متكين، و(الصابئين) تكون: الصابين، و(الخاطِئُون) تكون: الخاطون، وهي عند سيبويه بين بَين[٢].

٧- مكسورة قبلها فتحة: فتبدل ياءً نحو: (تطمئن) تصبح: تطمين، و(يئس) تكون: يَيس، وعند سيبويه تسهل بين بين[٣].

الثاني: المتحركة قبلها ساكن، فإمّا أن يكون الساكن حرف مدّ أو لا، فإذا كان حرف مدّ مثل (بريئة) و (ليسوءوا) فيكون تسهيلها إما بجعلها بين بين أو بحذفها أو بإبدالها على خلاف بين القراء[٤].

وإذا كان الساكن ليس حرف مدّ فالمنقول في تسهيلها هو نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها[٥]، ويكثر ذلك مع (أل) التعريف نحو: (الأرض) لتكون (أَلَرْض)، و(الآخرة) لتكون: أَلآخرة ..[٦].

هذا مجمل ما يتصل بتسهيل الهمز،على أنّ في الأمر تفصيلاً ليس هذا مقامه ، ولكنْ ثمة عددٌ من الملاحظات التي اتفق عليها أصحاب هذا العلم يحسن ذكرها:

١- الهمزة الساكنة إذا لقيت ساكنًا فحُرِّكت لأجله لا تبدل وإنما تخفّف نحو: فإن يشأ الله[٧].

(١) ينظر: الكتاب ٣/٥٤٢

(٢) ينظر: المصدر نفسه ٣/٥٤٢

(٣) ينظر: المصدر نفسه ٣/٥٤٢

(٤) ينظر: النشر ١/٤٠٠

(٥) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش ٩/١٠٩

(٦) ينظر: الكتاب ٣/٥٤٥، والنشر ١/٤١٤-٤١٥

(٧) ينظر: النشر ١/٤٠٧

٢- الهمزة المتطرفة المتحركة في الوصل نحو: إنشاء، يستهزئ، لكل امرئ.. إذا سكنت في الوقف فهي محقّقة وهذا ممّا لا خلاف فيه(١).

٣- الهمزة الساكنة يمتنع أن نجعلها بين بين، لأنها كما يقول سيبويه: «حروف ميّتة وقد بلغت غايةً ليس بعدها تضعيف(٢) ولا يوصل إلى ذلك ولا تحذف، لأنّه لم يجئ أمرٌ تحذف له السواكن، فألزموه البدل كما ألزموا المفتوح الذي قبله كسرةٌ أو ضمةٌ البدلَ»(٣).

المطلب الثاني: الهمزة في شعر قريش

تقدّم في المطلب الأول صورُ تخفيف الهمزة ليقف القارئ بشكل دقيق على التخفيف الذي يمكن أن يكون سائداً في لغة زمن الفصاحة وعند قريش خاصّة بلهجتها التي تعدُّ أفصح اللهجات، وغريب ما أشار إليه صاحب كتاب لغة قريش حين تكلّم على التسهيل عند قريش فعقّب بقوله: «ولم يكن الشعر يحفل ببعض أنواع التسهيل بسبب أوزانه التي تتطلّب إيقاعاً معيّناً، كما أنّ الشعر الذي يُعتمد عليه في وضع قوانين اللغة أحياناً كان أكثرُه لقبائل نجد وهي لا تُسَهِّلُ الهمز»(٤)، ولا شك أن في هذا الكلام بتراً للموضوع واختزالاً مُخِلاً للفكرة، فعلى كلامه لا يُعتدُّ بشعر قريش وهم أفصح العرب، أو إنهم لم يكن لهم شعرٌ قطّ، وهذا ممّا لا يصح بحال.

من هنا جاءت أهميّة الوقوف على شعر شعراء قريش وقفةً تضع القارئ أمام حقيقة المسألة، ولا شك أنّ للشعر ضوابطَ لا يمكنُ تجاوزها «فإن إسقاط صوتٍ معيّن في بعض الحالات بدون تعويض لا يُنظر إليه في هذه الظاهرة؛ لأن الاتفاق

(١) ينظر: النشر ١/٤٠٧

(٢) يعني بالتضعيف هنا الزيادة في الضَّعْف

(٣) الكتاب ٣/٥٤٤

(٤) لغة قريش ٣٩

يشكل جزءاً من الصورة الموسيقيّة للكلمات أو وزنها في ذاكرة المتكلم اللغوية»(١).

لذلك فإن تسهيل الهمزة بحذفها قد لا ينسجم مع كثير من الملاحظات العروضيّة التي تكسر البيت الشعريّ، أمّا بإبدالها بحرف من جنسها أو تسهيلها بين بين، فربّما لا يكسر الوزن وفي أحايين أخرى يكسره كما سيتبين.

وممّا ذكره سيبويه لاتفاق الوزن على الرغم من التخفيف قول الأعشى(٢):

أَأَن رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ رَيبُ المَنونِ وَدَهرٌ مُتبِلٌ خَبِلُ

إذ قال: «فلو لم تكن بزنتها محققة لانكسر البيت»(٣).

ومثل ذلك في اجتماع همزتين، فالمعروف أنّ أهل الحجاز يخفّفونها جميعًا، ففي قولك: اقرأ آية، تقول: اقرا آية، ونحو قولك: أقرئ أباك تقول: أقري باك، وقد فطن سيبويه إلى ضرورة استقامة الوزن في حال التخفيف فيقول: «والمخفّفَةُ بزنتها محقّقة ولولا ذلك لكان هذا البيت منكسراً وإن خففت الأولى أو الآخرة(٤)

كُلُّ غَرَّاءَ إذا مَا بَرَزَتْ»(٥)

وتجد التسهيل بين بَين في مواضع أخرى يكسر البيت نحو قول الفرزدق(٦):

راحت بمَسْلَمَةَ البِغالُ عَشِيَّةً فَارْعَيْ فُزَارَةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ

فقال سيبويه: «فأبدل الألف مكانها، ولو جعلها بين بَين لأنكسر البيت»(٧)،

(١) القراءات القرآنية ٧٣

(٢) ينظر: ديوانه ١٤٩ والبيت من البسيط وهذه الرواية كما في الكتاب وهي في الديوان: وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

(٣) الكتاب ٣ / ٥٥٠

(٤) صدر بيت من الرمل وهو من الأبيات مجهولة القائل وهو بتمامه: (كُلُّ غَرّاءَ إذا ما بَرَزَت تُرْهَبُ العَينُ عليها والحَسَدْ). ينظر: الكتاب ٣ / ٥٤٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٩ / ١١٨.

(٥) الكتاب ٣ / ٥٥١

(٦) ينظر: ديوانه ١ / ٤٠٨، وهو أيضا في ديوان عبد الرحمن بن حسان ينظر: ديوانه ٣١، والبيت من الكامل.

(٧) الكتاب ٣ / ٥٥٤

أي إن القياس في همزة (هَنأك) كان أن تُجعل بين بَين؛ لأنها متحركة ولكن أبدلت ألفًا لاستقامة البيت .

ومثل ذلك قول حسان[١] :

سالَتْ هُذَيْلُ رَسُولَ الله فاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلُ بِما قالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

يريد : سألت .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل[٢]

سالَتَانِي الطَّلاقَ أنْ رَأَتَاني قَلَّ مالي قَدْ جِئْتُماني بِنُكْرِ

يريد : سألتاني .

وقال عبد الرحمن بن حسان[٣]

وَكُنْتُ أَذَلَّ مِنْ وَتَدٍ بِقاعٍ يُشَجِّجُ رَأْسَهُ بالفِهْرِ واجِي

يريد : الواجئ .

فتجد في هذه الشواهد قد أبدلت الهمزة بحرف المد ليستقيم الوزن[٤] .

ما تقدم هو اضطرار الشاعر إلى ترك لغته من التحقيق إلى الإبدال ليستقيم الوزن، ونريد فيما يستقبل من سطور استعراض نماذج من شعر قريش لنقف على تعاملهم مع الهمزة على أي شكل كان .

قال عبد الله بن الزبعرى[٥] :

فكأنما كتب اليهود رسومها إلا الكفيف ومقعد الأطناب

---

(١) ملحق ديوانه ٣٧٣

(٢) البيت منسوب في الكتاب لزيد بن عمرو بن نفيل وفي الخزانة منسوب لنبيه بن الحجاج، ينظر: الكتاب ٣ / ٥٥٤، وخزانة الأدب ٦ / ٤١٠، ٤١٢

(٣) ديوانه ١٨

(٤) ينظر: الكتاب ٣ / ٥٥٤-٥٥٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٩ / ١١٤

(٥) ديوانه ٢٩

فإذا كان قد سهّل همزة (فكأنما) واتفق ذلك مع الوزن فلا بد من تحقيق همزة (الأطناب) لأن حذف الهمزة سيكسر البيت وذلك لأن تقطيع الشطر الثاني بالتحقيق سيكون كما يأتي :

-- ---/-U-UU / - U كامل مقطوع[1]

متْفاعلن / مُتَفاعِلُن /متْفاعلْ

أما في حال الحذف فيكون :

---/-UU-UU / -U

متْفاعلن / ؟ / مُتْفاعلْ

فالتفعيلة التي في الوسط يجب أن تكون (مُتَفاعلن) أو إحدى صورها، والمتأتي من التخفيف ليس من صور (متفاعلن)

ومثل ذلك في البيت الذي يليه[2] :

قفراً كأنَّك لَمْ تَكُنْ تَلْهُو بِها في نِعْمَةٍ بِأَوانِسٍ أَتْرابِ

فلا يستقيم الوزن إلا بتحقيق همزة أتراب، وأمثلة ذلك في القصيدة كثير.

ويقول في قصيدة أخرى[3] :

ألا أبلغا عني قصيًا رسالةفأنتم سنام المجد من آل غالب

فهمزة (ألا) لا جدال في تحقيقها ولكن ما يوجب الإشارة إليه هنا هو الشطر الثاني، فتقطيعه مع تحقيق همزة (آل) يكون :

U-- / U--- / U-- / U-U- طويل

---

(١) تختلف الرموز المستعملة للتقطيع الشعري في كتب العروض وهنا استعملت الرمز (-) للإشارة إلى المتحرك بعده ساكن فيشمل هذا الرمز المتحرك والساكن، والرمز (u) للمتحرك بعده متحرك وهو يمثل الحرف المتحرك السابق فقط.

(٢) ديوانه ٢٩

(٣) ديوانه ٣٠

فعولن / مفاعيلن / فعولن / مفاعلن

وأما تقطيعه بالتسهيل:

U-- / U --- / UU- / U-U-

فعولن / مفاعيلن / ؟ / مفاعلن

ولا شك بانكسار الوزن فلا صورة لـ(فعولن) تكون (-UU).

ومن ذلك أيضًا قوله(١):

ومن عجب الأيام والدهر كله له عجب من سابقات وحادث

فلابد من تحقيق همزة (الأيام) وإلا صارت التفعيلة (مفاعيلن): (--UU) وهذا ليس من صورها.

ومن ذلك أيضا(٢):

وَلو أَنَّهُمْ لَم يَفعَلوا ناحَ نِسوَةٌ أَيامَى لَهُم مِن بَينِ نَسءٍ وَطامِثِ

فهمزة (أنهم) لابد من تحقيقها، لأنها بالتسهيل ستكسر البيت ويكون التقطيع على الشكل الآتي:

U- U- / U -- / U --- / U- U-الطويل

ومعلوم أن التفعيلة الأولى في بحر الطويل هي (فعولن) وليست (-UU) من صورها.

ومما جاء عنده مما يوجب التخفيف بالحذف قوله(٣):

وَوَدّوا لَو اَنَّ الأَرضَ يَنشَقُّ ظَهرُها بِهِم وَصَبورُ القَومِ ثَمَّ جَزوعُ

فهمزة (أن) يجب حذفها ونقل حركتها إلى الواو الساكنة قبلها كي يستقيم الوزن، أما همزة (الأرض) فبالتحقيق تأتي التفعيلة على الشائع في الطويل أي إنها

(١) ديوانه ٣١

(٢) ديوانه ٣٢

(٣) ديوانه ٣٨

(مفاعيلن) غير مقبوضة، وأما مع التخفيف فتأتي (مفاعلن) مقبوضة[١]، وهي جائزة عروضيًا ولكنها قليلة في التفعيلة الثانية في بحر الطويل، وتشيع في التفعيلة الرابعة منه.

ومثل هذا مما يظهر فيه الزحاف بسبب التخفيف قوله[٢]:

فَآوى وَحَيّا إِذ أَتاهُ بِخُلَّةٍ وَأَعرَضَ عَنهُ الأَقرَبونَ الأَصادِقُ

فتقطيع البيت مع التخفيف يكون:

U-- /U--U /U-- /U-U- // U-U /U-U- /U-U /U-U-

فهذا إذا خففنا همزة (إذا) و(أتاه) نلحظ انكسار البيت لمجيء التفعيلة الثانية من الشطر الأول (مفاعيلُ) وهي لا تأتي على هذه الصورة في بحر الطويل فتوجب تحقيق همزة (أتاه)، علمًا أن التسهيل في سائر البيت قد ملأه زحافات وعللاً ومنها ما هو غير شائع في الطويل إذ إن تقطيع البيت مع التحقيق يكون على الشكل الآتي:

U-- /U--- /U-U /U -U- // U-U / U--- /U--/U-U-

وهو بهذه الصورة على الوزن الذي شاع واطرد عند شعراء الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا.

ونأخذ له مثالاً أخيراً من بحر الرمل إذ يقول[٣]:

فَقَتَلنا الضعفَ مِن أَشرافِهُم وَعَدَلنا مَيلَ بَدرٍ فَاعتَدَل

فبتسهيل همزة (أشرافهم) ينكسر الشطر الأول، إذ تتحول التفعيلة (فاعلاتن) الثانية إلى هذا الرمز (– -U U) ومعلوم أن هذا ليس من صورها.

---

(١) القبض هو حذف الخامس الساكن من التفعيلة

(٢) ديوانه ٣٩

(٣) ديوانه ٤٢

ومن أشعار أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله(١):

فَإِنّا وَإِن عَيَّرتُمونا بِقَتلِهِ وَأَرجَفَ بِالإِسلامِ باغٍ وَحاسِدُ

فلا بد من تحقيق همزة (الإسلام) وإلا كان تقطيع الشطر الثاني:

U- U / U U-- / U-- / U- U-

وهذا مما لا يصح في بحر الطويل لأن التفعيلة الثانية (مفاعيلن) لا يكون من صورها (U U--).

ومنه قوله يرثي النبي ﷺ(٢):

فُجِعنا بِالنَبِيِّ وَكانَ فينا إِمامَ كَرامَةٍ نِعمَ الإِمامُ

فهذا البيت من بحر الوافر وبتخفيف همزة (الإمام) يكون تقطيع الشطر على الثاني:

U- U U- / U-U / U-

فالتفعيلة الثانية (مفاعَلَتُن) وهذا الرمز (U -- U) ليس من صورها.

وله في موضع آخر لزوم التسهيل ليمضي البيت بلا كسر وهو قوله(٣):

وَلَستُ آسى عَلى شَيءٍ فُجِعتُ بِهِ بَعدَ الرَسولِ إِذا اَمسى مَيِّتًا فُقِدا

فهمزة (أمسى) لا بد من تسهيلها كي يستقيم وزن البيت وهذا يعني نقل حركتها، وهي الفتحة، إلى الذال من (إذ) لأنه بالهمز يكون تقطيع العجز كما يأتي:

U- / U-- / -- U - / U U - ــ

وهذا لا ينسجم مع تقطيع بحر البسيط، ولكنه مع التسهيل يكون تقطيعه كما يأتي:

U- / U U- / -- U- / U U- ــ

وهذا هو التقطيع الصحيح لبحر البسيط.

(١) ديوان أبي بكر الصديق ٢٧

(٢) ديوانه ٢٩

(٣) ديوانه ٣٤

ويبدو أن الهمز كان معروفًا بل شائعًا عند شعراء قريش فإنك لا تجد قصيدة إلا وفيها ما يوجب الهمز ، والذي يبدو أن اللغة الفصيحة التي كانت في قريش فيها من الهمز الكثير، ولعل ما ينقل قديمًا وحديثًا مما أخذه المحدثون عن القدماء من أن قريش لا تميل إلى الهمز أو أنها لا تهمز قد يتصل باللغة الدارجة، ولا أظنها لهجة عامية خالية من أصول الفصاحة، ولكن ما يظهر أنها ليست لغة المخاطبات والمناظرات في المحافل العامة، وكذلك فإن اللغة العالية لا يرجح أنها كانت ازدواجية في تناول الهمز والتسهيل، فمثلا قول أبي بكر (١):

رُبَّ ريحٍ لأُناسٍ عَصَفَت ثُمَّ ما إن لَبِثَت أَن سَكَنَت

فلو قطعنا البيت بلا همز لانكسر الشطر الثاني عند قوله: (لبثت أن) وذلك بتطبيق قواعد التسهيل التي تقدمت، فهل هذا يقضي بأنه قد حقق همزة (أن) من دون ما سواها مما ورد في البيت في قوله (لأناس) و(ما إن)؟ ومن يزعم ذلك عليه تقديم البرهان بين يدي دعواه، وإلا فأرى أن الهمز هو الشائع في شعر شعراء قريش كسائر شعراء العرب، ولولا الإطالة لأتينا بمئات الشواهد على ما يجب الهمز بها، ولعل الاقتصار على عدد قليل من الشواهد لشعراء مختلفين من قريش يكفي لهذا الغرض.

تقول صفية بنت عبد المطلب(٢):

عَظيم الحلمِ من نفرٍ كرامٍ خَضارِمةٍ ملاوثةٍ أسودِ

فهذا البيت من بحر الوافر وتقطيع الشطر الثاني بتسهيل يكون:

U- U U- / U- U U U / U--

فتفعيلة الوافر الثانية هي (مفاعلتن) ولا يمكن أن يكون الرمز (U- U U U) من

(١) ديوانه ٣٦

(٢) شعر صفية بنت عبد المطلب / مجلة المورد ٨٢ مج٢٧، العدد الأول ١٤١٩-١٩٩٩م

صورها، لذا يلزم همز (أسود) .

ويجد القارئ في القصيدة الواحدة عددا غير قليل من الأبيات تبدأ بالهمز ، ومما لا خلاف فيه هو تحقيق الهمزة إذا جاءت في أول الكلام، ففي قصيدة لصفية بنت عبد المطلب مكونة من تسع أبيات تجد أربعة أبيات تبدأ بالهمزة وأحد أعجازها وهي قولها[١] :

لَهفَ نَفسي وبِتُّ كالمسلوبِ ... آرق الليلُ فعله بحروب

من همومٍ وحَسرةٍ ردفتني ... لَيتَ أنّي سقيتُها بشَعوبِ

حين قالوا إن الرسولَ قَدَ امسى ... قَد وفته منيةُ المكتوبِ

إذ رأينا أنَّ النبيَ صريعٌ ... فأشابَ القُذال أي مشيب

إذ رأينا بيوته موحشات ... ليس فيهن بعد عيشي حبيبي

أورث القلب ذاك حزنا طويلا ... خالط القلب فهو كالمرعوب

ليت شعري وكيف أمسى صحيحاً ... بعد أن بِين بالرسول القريب

أعظم الناس في البرية حقًّا ... سيد الناس حبه في القلوب

فإلى الله ذاك أشكو وحسبي ... يعلم الله حوبتي ونحيبي

وربما يلفت النظر ضرورة التسهيل في قولها : (حين قالوا إن الرسول قد امسى) فلا بد من تسهيل همزة (أمسى) ليستقيم وزن بحر الخفيف لتكون عروض البيت (فعلاتن)، فنلحظ أن الضرورة تستدعي أحيانا التسهيل، ومثل ذلك نجده عند أبي بكر الصديق في قوله[٢] :

عَينُ جودي فَإنَّ ذاكَ شِفائي ... لا تَمَلّي مِن زَفرَةٍ وَبُكاءِ

حينَ قالوا إنَّ الرَسولَ قَدَ امسى ... مَيِّتًا إنَّ ذاكَ جَهدُ البَلاءِ

(٥٨) شعرها ٨٣

(٥٩) ديوانه ٣٥-٣٦

اِندُبي خَيرَ مَن بَرا اللَهُ في الدُنيا وَمَن خَصَّهُ بِوَحيِ السَماءِ
طَيِّبَ العودِ وَالضَريبَةِ وَالمَعدِنِ وَالخِيمِ خاتِمَ الأَنبِياءِ

وعلى الرغم من ذلك فإن مواضع ضرورة التسهيل أقل بكثير من مواضع ضرورة التحقيق، ولا أجد من يزعم أن كل همز في أشعارهم هو للضرورة وإلا كان كل شعرهم ضرورة، فمثلا تقول صفية في هذين البيتين(١):

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيشًا فَفيمَ الأَمْرُ فينا والإِمارُ
وَكُلُّ مَنَاقِبِ الأَخْيارِ فِيْنا وَبَعْضُ الأَمْرِ مَنْقَصَةٌ وَعَارُ

نجد همزة (ألا) أولاً لابد من تحقيقها ثم يقضي الوزن بوجوب تحقيق همزة (الأمر) و (الإمار) و(الأخيار) و(الأمر)، فأي ضرورة لا تبقي أي تسهيل؟.

ومن أشعار السيدة فاطمة (رضي الله عنها) ما يثبت ما قدمناه، فقد قالت في رثاء أبيها(٢):

وَكلّ قومٍ لَهم قُربى ومنزلةٌ عِندَ الإله وَلِلأدنين مقتربُ

نرى أن تقطيع البيت الثاني بتسهيل الهمز يكسر البيت، إذ سيكون كما يأتي:

U U- / U U U / - - U - / U U- –

وهذا لا يصح في بحر البسيط الذي عليه القصيدة.

ومما قالته أيضًا في الغرض ذاته(٣):

فَالأرضُ مِن بعدِ النبيّ كئيبةٌ أَسفًا عليه كثيرةُ الرجفانِ

فالبيت من بحر الكامل وتخفيف همزة (الأرض) تكسر البيت إذ سيكون تقطيع الشطر الأول:

U- U- / - - U- / U U- U-

(١) شعرها ٨٣

(٢) مجلة المورد مج ٢٤–العدد الأول ٤٠

(٣) المصدر نفسه ٤٠

فهذه التفعيلة الأولى (U - U-) لست من صور (متفاعلن)، فلابد من تحقيق همزة (الأرض) ومثله الشطر الثاني من قولها في القصيدة نفسها[١]:

وَلَيبكهِ الطور المعظّمُ جوّهُوَ البيتُ ذو الأستارِ والأركانِ

ومثل ذلك قولها[٢]:

قُل للمغيّب تحتَ أَطباقِ الثّرى إن كنتَ تسمعُ صَرخَتي وَندائيا

فإن تخفيف همزة (ندائيا) يكسر البيت من جهة أنه سيكون مقطوعًا من دون سائر أبيات القصيدة، أما تخفيفها بجعلها ياءً فإن اللفظ سيكون أثقل بكثير من إبقائها همزة محققة.

ومثل ذلك يقال في البيت الرابع من هذه القصيدة:

فَاليومَ أَخشعُ لِلذليلِ وأَتّقي ضَيمي وَأَدفع ظالِمي بِردائيا

وبعد كل ما تقدم فلا بد من الإشارة إلى أنه قد تيسر تحت يدي كثير من دواوين شعراء قريش كالعرجي والحارث بن خالد المخزومي وعبد الله بن معاوية وغيرهم، إلا أن هؤلاء ربما ابتعدوا عن الحقبة التي نريد الوقوف على شعرها، على الرغم من أن محققي ديوان العرجيّ مثلاً يقولون إن ديوانه يفيد اللغة والتاريخ (وان لغة هذا الديوان قرشية إلا ما يتخلله من بعض اللغات النادرة ... فالعرجيّ شاعر قرشي لذلك كان ديوانه مهمًا)[٣]، ولكنا مع ذلك آثرنا أن نقتصر على شعراء وشخصيات مخضرمة واكبت نزول القرآن الكريم، ومن قبل ذلك لغة قريش قبل نزول الوحي.

(١) مجلة المورد مج ٢٤-العدد الأول ٤٠

(٢) مجلة المورد مج ٢٤-العدد الأول ٤٣

(٣) ديوان العرجيّ ٤٠.

الخاتمة والاستنتاجات

بعد هذا العرض لطائفة من أشعار القرشيّين يتضح أن الهمز ظاهرة موجودة غير طارئة على لغة قريش، وهي في لغات العرب ربما سهلت هنا أو هناك في أشعارها بحسب ضرورة الوزن الشعري، أما تحقيقها فيكثر كثرة مطردة في مواضع شتى ربما كثير منها في أول الكلمة ولكن بعد (أل) التعريف ومنها داخل الكلمة، وهذا ممّا يعزز فكرة أن لغة الشعر عند قريش قد عرفت الهمز بشكل كبير ولم يكن دخيلاً على لهجتهم، ولولا خشية الإطالة لفصّلنا القول في مواضع كثيرة لصور انكسار البيت، ولزدنا على ذلك استعراض كلٍّ حالات الزحافات المشهورة والنادرة، فهذا البحث قد تجاوز مواضع كثيرة جداً، على افتراض تسهيل الهمزة فيها مع ما تؤدي من زحافات لا تحصى في قصيدة الشاعر، وبهذا الافتراض يكون شعراء قريش أكثر العرب زحافات وعللاً، وهو ما لم يذكره دارس من قبل، فالزحاف في حقيقته عيب في الشعر ولكن لاطراده وكثرته صار مقبولاً.

وبعد كل ما تقدم فلا أدّعي هنا أن ما قدّمته في هذه السطور هو أمر مطلق ولكن حسبي أني قد بذلت الجهد ووصلت إلى ما وصلت إليه، ولعلّ عملاً آخرَ يقدم تأكيداً وتوثيقًا لما قدّمت أو أنه يُبطل ذلك بأدلة وبراهين تجعل من هذا البحث مثارةً للوقوف على الصواب، وفي كلّ ذلك خير، وحسبنا في كل ذلك أن يتقبل الله عملنا ويكلّله بالإخلاص والنصيحة للغة التي شرّفها تعالى بكتابه العزيز والله الموفق.

المصادر والمراجع

* الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين السيوطي- مصر (د.ت) .
* إيضاح الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل- محمد بن القاسم بن الأنباري - تحقيق محيي الدين رمضان- دمشق - مجمع اللغة العربية ١٣٩٠هـ.
* تاج العروس من جواهر القاموس- مرتضى الزبيدي-تحقيق مجموعة محققين- دار الهداية- الكويت .(د.ت) .
* تأويل مشكل القرآن- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة- تحقيق السيد أحمد صقر- بيروت - دار الكتب العلمية- ط٣ / ١٤٠١هـ.
* جامع البيان عن تأويل آي القرآن- محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر (٣١٠هـ)- دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥هـ.
* الجامع لأحكام القرآن - القرطبي- المكتبة العربية- دار الكتاب العربي- القاهرة ١٩٦٧ .
* خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب- عبد القادر بن عمر البغدادي- تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط٣ / ١٩٨٩ .
* الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي (وزارة الثقافة والإعلام / بغداد، ١٩٨٠م) .
* ديوان أبي بكر الصديق- شرح وتحقيق راجي الأسمر- دار صادر- بيروت- ط١ / ١٩٩٧ .
* ديوان حسان بن ثابت الأنصاري- تحقيق سيد حنفي حسنين- دار المعارف - مصر - ١٩٧٧م .
* ديوان العباس بن مرداس- جمع وتحقيق: يحيى الجبوري- مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية- بغداد- ١٩٦٨ .

* ديوان العرجي- شرح وتحقيق خضر الطائي، ورشيد العبيدي- الشركة الاسلامية للطباعة والنشر- بغداد- ط١ / ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.
* ديوان الفرزدق - دار صادر (د.ت)
* سر صناعة الإعراب- أبو الفتح عثمان بن جني- تحقيق: أحمد فريد أحمد- المكتبة التوفيقية (د.ت).
* شرح الشافية - رضي الدين الاستراباذي- تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد- دار الكتب العلمية- بيروت (د.ت).
* شرح المفصل- موفق الدين بن يعيش النحوي- عالم الكتب- بيروت (د.ت).
* شرح ديوان الأعشى- تحقيق كامل سليمان- دار الكتاب اللبناني ط١- (د.ت).
* شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت- جمعه وحققه سامي مكي العاني- بغداد - ط١ / ١٩٧١م.
* شعر عبد الله بن الزبعرى- تحقيق الدكتور يحيى الجبوري / مؤسسة الرسالة- بيروت ط٢ / ١٩٨١.
* علم اللغة العام- قسم الأصوات- الدكتور كمال محمد بشر- دار المعارف- مصر ١٩٧٣.
* القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث- الدكتورة مي فاضل الجبوري - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد- ط١ / ٢٠٠٠.
* كتاب سيبويه- تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي - القاهرة- ط٢ / ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
* لغة قريش- مختار الغوث- دار المعراج الدولية للنشر- المملكة العربية السعودية- ط١ / ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

* المدخل إلى علم أصوات العربية- الدكتور غانم قدوري الحمد .
* النشر في القراءات العشر- أبو الخير محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (٨٣٣هـ)- دار الفكر- (د.ت).
* همع الهوامع - جلال الدين السيوطي - دار المعرفة- بيروت (د.ت).

الدوريات

* مجلة المورد - مج ٢٧- العدد الأول ١٤١٩هـ-١٩٩٩م شعر صفية بنت عبد المطلب.
* مجلة المورد - المجلد ٢٤- العدد الأول ١٤١٧هـ-١٩٩٦م شعر فاطمة الزهراء.